نوادر جحا

جحا والكنز

سلسلة

ويأتيك بالاخبار

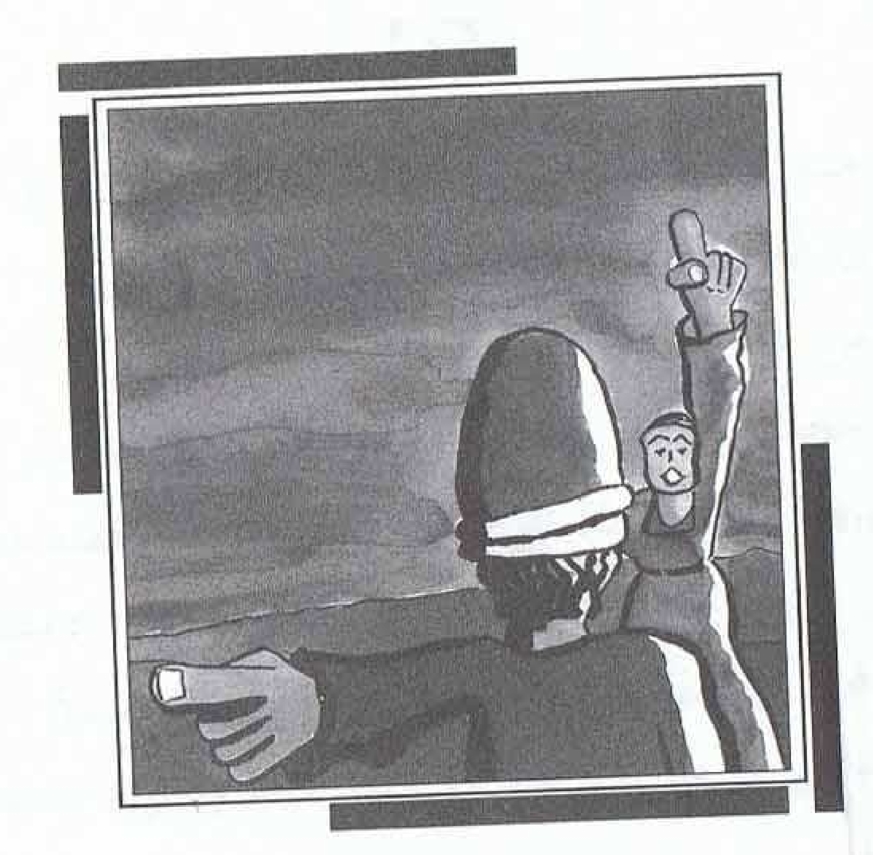


منشورات مكتبة سمير

سلسلة ويأتيك بالاخبار

نوادر جحا

جحا والكنز



منشورات مكتبة سمير

القصة الأولى

جحا والكنز

قيل: «لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول: أللهمّ أرْزقني وقد علم ان السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضّة».

١

هذه حكاية بطلها جحا أُتحفك بها (أُهديها اليك)، ايّها القارئ العزيز.

من هو جحا؟

جحا هو بطل قصص ونوادرَ لا يَحصُرها عدّ (لا يُحصيها) وله وجهان: يلوح لك في البعض من قصصه انّه رجل فهيم حاضر النكتة حادّ الذكاء فيُثير دهشتك وإعجابك. ويَظهَر في البعض الآخر انه رجل احمقُ غايةٌ في الحمق فتُذهلك بلاهته وسخافة عقله (غَباوته وضعف

عقله). فتتساءل: كيف يُمكن هذا الرجل ان يتلوَّن كالحِرْباء؟ هل هو أبلهُ فعلاً ام يتباله (يتظاهر بالبله)؟ لا ندري.

على كلّ حال فأخباره لا تخلو من فكاهة وعبرة. ما رأيك لو وصفناه بالرجل الغريب الأطوار؟

جحا والكنز قصة تدُلّ على غباوة صاحبنا. وإليك الخبر.

٢

كان جحا وامرأته سكينة يقطنان بيتًا حقيرًا، أشبه بالكوخ منه بالبيت، لا يقي حرّ النهار ولا بَرْد الليل. سقفه وجدرانه من تنك وأرضه من طين. اذا اشتدّ الحرّ يُخيَّلُ إليك انك تعيش في تنّور. واذا قرِس البرد ظننْت انك تسكُن ثلاّجة.اما اذا عصفتِ الرياح وهطَلتِ الأمطار وقَرعت سقف الكوخ وحيطانه فتحسِب انه قد صُوِّتَ بالبوق (نُفِخَ به) وأزِفتِ الساعة (حان وقت القيامة).

أُدخلْ ذلك الكوخ ونقِّلْ طَرْفك فيه فلن تجد أثرًا لأثاث

ولن تعثُر على سرير أو فراش. فتسأل: «اين ينام جحا وامرأته؟» ينامانِ على حصير يبسُطانه على الحضيض (الأرض) ويستلقيان عليه ويلتحفان بثيابهما. وفي الصباح تجمَع سكينة الحصير وتضعه في زاوية. وهذا ما يُسمَّى الفقر المُدْقِع (الذي يُلْصقك بالتُّراب).

كان جحا كسولًا ولا أكسلَ منه، يَقضي طَوالَ نهاره قابعًا في كوخه أو جالسًا على حجر أمام الباب يستسلم لأوهامه وأحلامه. يمُرّ الوقت ولا يشعُر به. فيُخيَّلُ إليك انه يعيش في عالم غير عالمنا، يسمع اصواتًا لا تبلُغ مِسمعك، ويرى أطيافًا تَخفى عن ناظريك، فتضطرّ امرأته الى العمل لتقوم بأَوَدها وأود زوجها (معاشه). تغادر البيت في الصباح وتذهب تفتّش عن شغل: تارة تجد من يستخدمها لِكناسة بيت او لِغسل ثياب، فتؤوب (تعود) الى بيتها مساءً وقد نهكها التعب، لكنها فرحة لأنها تحمِل زادًا اشترته ببعض دراهمَ كسَبتها. وتارة تدور من الشروق الى الغروب من بيت الى بيت، فلا تجد من يُشغِّلها. لقدِ انسدّت في وجهها ابواب الرزق. فترجِع الى منزِلها متثاقلة الخُطى،

كسيرة الخاطر، فارغة القلب واليدين، والألم يحُزّ في نفسها. لن تجد ما تُمسك به رَمَقها مع زوجها، سوف يبيتان على الطَّوى (الجوع).

حاولت سكينة في بَدْء امرها بشتّى الوسائل ان تحمِل زوجها على ان يجد عملًا فأخفقت. كانت تلين بكلامها مرة وتلاطفه، وتعنُف أخرى وتؤنِّبه، فلا اللين يعمَل فيه (يؤثر فيه)، ولا العُنْف يُثير حَميَّته، غالبًا ما كان يبقى جامدًا كالصنمِ.

فتتساءل زوجته: «هل يُصغي اليّ وهل يفهَم كلامي؟» ومن وقت الى آخر كان يحلو له ان يتعمّد إثارتها فيُجيبها ببرودة:«القناعة غِنى، يا امرأة، ممَّ تَشكِين؟» فتتميّز غيظًا وتقول:

– اكتملت مُصيبتي. كسولٌ وفيلسوف!

– أُصمتي لو كنتِ تدرين مَن هو رَجُلك.»

٣

في يوم من الأيام حدث ما لم يكن بالانتظار. ما ان

عادت سكينة الى البيت في المساء حتى انتصب جحا وخفّ لاستقبالها (اسرع) وبادرها بقوله: «يا امرأة، الحقّ معك. لقد نفَضت عني الخمول (تركت الكسل) وقرّرت ان اقوم بواجبي كَربِّ بيت. لا بدّ لي من عمل. بمَ تنصحينني؟

– أجادٌّ فيما تقول؟

– كل الجِدّ. أجيبي عن سؤالي.

بَرقت آنذاك عيناها فرحًا وتطلّق وجهها واستبشرت خيرًا. ابتسمت له وقالت: «وأيّ عملٍ تستطيعه؟ لست صاحب مهنة يا رجلي. فلا تُحسن الحدادة ولا التِّجارة ولا... ما رأيك لو عمِلت عتّالًا؟» أطرق جحا رأسه وغاص في تفكير عميق وهو يردّد:«عتّال... عتّال... فكرتك وجيهة (مصيبة، معقولة). من غدٍ أباشرُ العمل. وسأعود اليك في المساء وأَنثر عليك النقود.

– ان شاء اللّه.

وهيّأت له سلّةً وحبلًا.

قضى جحا ليلته تلك وهو يحلُم بعمله الجديد وبالنقود

التي ستُثقِّل جيبه. فيرى نفسه عائدًا الى بيته في المساء يحمِل أَفخر المآكل وأشهاها فيضعها أمام زوجته ويقول لها باعتزاز: «كلي، يا امرأة، وتلذّذي. هذا ما جنتْه يدا زوجك جحا في هذا النهار.»

وينبلج الصبح فيهُبّ جحا من رُقاده ويعمِد الى السلّة والحبل ويقول:«زوجك ذاهب الى العمل، يا سكينة. أُدْعي له بالتوفيق.» ويخرج.

توجّه صاحبنا من توّه (رأسًا) الى السوق وقصدَ مخزن حبوب، فوجد بابه مُغلقًا. فأخذ يتمشّى امام المخزن وهو يتمتم:«متى يُفيق الناس من نومهم ويذهبون الى عملهم؟ لا افهم كيف يهدُرون وقتًا ثمينًا ويُضيّعون عليّ فرصة العمل والكَسْب. يا جحا، انت رجل نشيط. سوف تعمَل بدون ملَل. ولن يمضي عليك بعض الوقت حتى تُصبح من الأَثرياء فتَفتح متجَرًا وتستخدم عُمالًا...» ويطرُق مِسْمعه صوت صاحب المحلّ: « يا عتّال» فيهرول جحا والابتسامة ترتسم على شفتيه: «أتت الرزقة».

– إحمِلْ هذا الكيس للخواجا.

تقدّم جحا من الكيس ليروزه (يرفعه عن الارض ليُقدِّر وزنه) فما استطاع ان يزحزحه من مكانه. فحملق في صاحب المخزن قال: «من قال لكَ اني جَمَلٌ؟ اذا اراد الخواجا ان أَحمِل له كيلو بطاطا، كيلو سكر، كيلو...» فطرده التاجر قبل ان يُتمَّ ثرثرته.

انكسر خاطر جحا وفترت همّته وعدل عن العمل. رمى بالسلّة والحبل وقفل راجعًا الى بيته. قعد على الحجر أمام الكوخ كالمعتاد وراح يترقّب إِياب زوجته (عودتها). عادت هذه مساء والانشراح بادٍ عليها لانها كسَبت بعض النقود. وكانت تفكّر في نفسها:«هذا يوم ميمون (موفّق). لا شك في ان زوجي ربح بعض الدراهم. لقد أمّنّا قوتنا لبضعة أيام.»

ما ان شاهدته من بعيد حتى نادته:«موفّق باذن اللّه.» فانتفض جحا لسماعه هذه الكلمات وانفجر صائحًا: «موفّق! موفّق! وأيّ توفيق!

ما هذا العمل الذي أشرت عليّ به؟ واللّه لو حملت الكيس لرزَحت تحته ولكنتِ الآن أرملة، يا سكينة.»

ثم حنى رأسه وسالت دموعه عليخدّيه.

بُهتتِ الزوجة عند سماعها هذه الكلمات فهي لم تفهم معناها. وممّا زاد في دهشتها بكاء جحا وهي لم تعرِف له سببًا. فاقتربت منه ولاطفته قائلة:«لا عليك.. أُدخل الآن وتعشَّ.»

وهكذا كانت الأيام تمرّ على الزوجين. تترك سكينة البيت في الصباح لتبحَث عن عمل، ويمكُث جحا يداعب أحلامه بانتظار عودة زوجته. وكان من الطبيعيّ ان يطلَع عليها بحماقة بين يوم ويوم. فتملِك تارة أعصابها وتكظُم غيظها (تكتُم سخطها. غضبها) وتعتصم بالصمت (تتمسّك بالسكوت، تلوذ به)، وتارة تنفجر غاضبة فتنهال عليه باللوم والتوبيخ ويرتفع صوتها ويعلو صراخها وتتهدّده وتتوعّده (تُنذره بالشرّ، بالعقوبة)، فتصطدم به كأنها تصطدم بجدار. لا يأتي بحركة ولا ينبِس ببنت شفة (لا يفوه بكلمة). وقد يبدو عليه الذُّل والانكسار أحيانًا فتأخذها الشفقة عليه وتتمتم: «زوجي مريض مجنون. وهل على المجنون حَرَج» (إثم، ذنب)؟ وتعود فتلاطفه وتراضيه.

٤

تذكُر، ايها القارئ العزيز، انّنا نعتنا جحا بالرجل الغريب الاطوار. وهل أغرب من تصرفات هذا الرجل؟

حدث مرّة أُخرى أن عاودته الكرامة وعِزّة النفس، وتذكَّر انّه هو ربّ البيت وأنّ عليه ان يعمَل بيديه ليؤمِّن معيشته ومعيشة زوجته. فتراه ينتصب واقفًا ويروح ويجيء امام كوخه وهو يردّد:«لن أرضى بعد الآن ان أكون عالة على زوجتي بل عليّ ان أُعيلها (اقوتها). يا سكينة، اين انت؟» وما ان تصل سكينة حتى يبادرها بقوله: «يا امرأة، اسمعي ما اقول: بَعْلُك سئِم حياة البِطالة والخنوع (ملّها، ضجر منها)، وأَزمع العمل من جديد (قرّره، صمّم عليه). بِمَ تشيرين عليه؟

– أشير عليه بالجلوس على حجر أمام كوخه والاستسلام الى أوهامه.

– سكينة، أبلغت بك القِحة الى أن تسخَري من زوجك وتشكّي في كلامه؟

– وماذا اصنع بك، يا شريكَ حياتي؟ لقد حيّرني

تصرّفك وأذهلتني حَماقتك.

– كفاكِ كلامًا فارغًا واعْلمي انّ جحا اذا ما اعتزم أمْرًا حقّقه لا مَحالة. ردّي على سؤالي: بمَ تشيرين عليّ؟

فكّرت قليلًا ثمّ أجابت: «ما قولك لو أخذتَ فأسًا وذهبت الى الغابة؟ تقطَع الأحطاب وتجمعها وتحمِلها الى السوق وتبيعها وتشتري بثمنها طعامًا.

– أفكارك نيّرة، يا عزيزتي. واللّه لو عرف بك السلطان لاستوزرك. إذًا من غدٍ أنصرف الى عملي الجديد بهمة لا يَعروها الفتور. أما انت فتبقَين في البيت. انت ربّة هذا المنزِل فحسب. لن يُقال بعد الآن ان زوجة جحا تدور على أبواب الناس تستعطف زوجة الأفندي لتستخدمها، او تتذلّل لامرأة المختار لتتنازل وتشغّلها في كناسة بيت او غسل ثياب. ادخلي بنا نتعشّى.»

دخل جحا الكوخ بقدم ثابتة وهو يتبختر ويتعلّى والارتياح بادٍ عليه. لقد مثّل دوره على أكمل وجه. تبِعته سكينة وقد اعتراها الذهول. هل تضحك ام تبكي؟ هل تتكلّم؟ وما عساها تقول؟ اخيرًا آثرتِ الصمت (فضّلته).

مهما يكن من امر، هذا مشهد جديد يمثّله زوجها فيُبدع في التمثيل.

نزَلت سكينة على رغبة زوجها ولزِمتِ البيتَ. اما جحا فحَمل فأسًا وحبلًا وأمّ الغابة (قصدها). وصلها مع طلوع الشمس. عمَد الى شجرة يابسة متوسّطة الجِذع وانهال عليها بفأسه. راح يضرب بفأسه ويضرب والشظايا تتطاير يمينًا وشمالًا وجحا يتابع عمله لا يَني ولا يكِلّ (لا يضعُف ولا يتعَب). وفجأة قبل ان تهوي الشجرة الى الارض طارت شظيّة صغيرة وأصابت خدّه فآلمته. أجفل صاحبنا وقذَف بالفأس بعيدًا وأخذ يعدو وهو يصرُخ ويولول ويندُب حظّه ويشتُم امرأته: «هذه اللعينة أرادت ان تَقضي عليّ (تقتلني). لو أصابت الشظية عيني اما كانت قلعتها؟ ولو سقَطت الشجرة عليّ اما كانت هَرستني؟ يا جحا، لك في العمر بقية، والّا لما كنت عدت الى بيتك سالمًا.»

بلغ المنزل وهو يلهث وقبل ان يتفوّه بكلمة قالت له زوجته: «هذا انت! خيرٌ ان شاء الله. ما الذي أتى بك في هذا الوقت وما تحمِل إلينا من الاخبار السارّة؟ أين الزاد

وأين الفأس؟ تكلّمْ.»

فاجأت هذه الاسئلة جحا فأخرسته. «تكلّمْ. ما بالك لا تنتفخ الآن؟ لقد طفحَ الكيل، يا شقي، يا أحمق.» وراحت تُعْول وتصيح وتنتف شعرها وتلطِم صدرها. لو رأيتها على تلك الحالة لتوهّمتَ (ظننت) انها فقدت رشدها. أمّا صاحبنا فلم يجدْ مجالًا ليقول كلمة واحدة فترك العاصفة تمرّ ولاذَ بالسكوت. لما أعيا امرأته الصُّراخ والعِياط (الصِّياح) وخفتَ صوتها سألها ببرودة:«ما اسمك، يا زوجتي؟» وشدَّ ما كانت دهشتها لدى سماعها هذا السؤال البائخ، لكنها أجابته لتعرف مدى حماقته:«اسمي سكينة، يا زوجي».

– وما معنى سكينة، يا امرأتي؟ سكينة تعني الهدوء والسكون وقد أَقمت الدنيا وأقعدتها بصُراخك. إِخفضي صوتك أو غيّري اسمك.

– أهذا كلّ ما عندك ان تقوله؟ واللّه لم أرَ في حياتي رجلًا أغبى منك.

– لا تُتعبي نفسك، ما رأيتِ ولا تَرينَ.

– وامُصيبتاه لقد جُنَّ زوجي.

وسكن غضبها. وهكذا كانت العَلاقات تسوء يومًا بعد يوم بين الزوجين.

في إحدى العشيّات انقلبت سكينة الى بيتها صِفر اليدين. طرقت جميع الابواب فلم ينفتح في وجهها باب. عادت ذليلة النفس دامية القلب. لقد شبِعتِ امْتِهانًا وتحقيرًا في جولاتها اليوميّة. فامرأة تقول لها: «إِرجعي غدًا، لقد تأخَّرتِ اليوم».وأُخرى: «لا حاجةَ الى ان تُزعجيني كلّ يوم بسؤالك عن عمل. أبْعَثُ في طلبك عند اللزوم، انصرفي.» وثالثة:«إِقْبَعي في بيتك بدلًا من أن تدوري على أبواب الناس ودعي زوجك يشتغل.» ورابعة تُسند خصرها بيديها:«أكُتِبَ عليّ ان أَتصبَّح بك كلّ يوم؟ لا تُريني وجهك بعد الآن.»

وماذا تعاين كلّما رجَعت الى البيت؟ هو زوجها جالس على حجره كالمعتاد تائه النظرات شارد العقل. وماذا تسمَع؟ حماقة من حماقاته. فتتلظّى غيظًا (تشتعل غضبًا كأنها تحترق) وتثور ولكن قبل ان تتلفظ بكلمة يشير اليها

جحا بيده: «أُصْمُتي، يا سكينة، لا تعكّري عليّ صفْوَ تفكيري».

– وهل في رأسك دِماغ لتفكّر، يا غَبيّ (أحمق-جاهل)؟

– من يَدري، يا امرأة من يدري؟ أشعُر في بعض الاحيان ان رأسي سوف ينفجر لِفَرْط ما يزدحم فيه من الافكار. اسمعي، لقد قرُب الفرج وأتتِ الساعة التي حلمْتُ بها. سأغمُرك بالحُلى، سأُريحك من عناء التعب، سأَرفَع عنك ذُلّ السؤال، سأعمّر لك دارًا...

– إخْرس، كفاكَ هَذَيانًا (كلام لا معنى له). لقد أَفقدتني صوابي (طيرتَ عقلي، جنّنْتني). ثم دخلت كوخها وأغلقت بابه وراءها بعد أن صاحت به: «إقضِ ليلتك حيث انت، يا مجنون». فلم يكترث لكلامها.

٥

لا ريب انك تتساءل أيّها القارئ العزيز، ومن حقّك ان تتساءل: هل جحا احمقُ، ام مجنونٌ، ام محتال؟ لعلّه مزيج

من هذا كلّه. ولكن قبل ان نحكُم عليه حكمًا مُبرمًا (قاطعًا لا يقبل الاعْتراض) سأُطلعك على أشياء لم أذكرها لك بعد وأكشف لك سرًّا يدفنه صاحبنا في صدره. وقد يكون هذا السرّ الدفين هو الذي يدفَعه الى التصرُّفات الشاذّة التي تُهيّج سُخط زوجته وغضبها وتُثير دهشتك وحيرتك.

إعلم، رعاك اللّه، ان صديقك جحا – وجحا صديق الصغار والكبار لانه يُفكّههم بنوادره في ساعات الضجر – اعلم ان جحا سمع بقصة غريبة شغَلت باله وأخذت عقله وصرفته عن العمل وقضّت عليه مضجعَه (خشُن فراشه فامتنع عليه النوم)، فانقلبت حياته رأسًا على عقب. ومفاد القصة (مضمونها – فحواها – مُوجَزها) ان جنيّة صالحة أجزلت العطاء لرجل فقير لجأ اليها، فغمَرته بالذهب والحجارة الكريمة (النفيسة – الثمينة)، فأبدلت فقرهُ غنًى وشقاءَه سعادة، وقد حدث ذلك ليلًا. لٰكنّ جحا يجهل هُويّة تلك الجنية والدافع الذي حملها على الأحسان الى ذلك الرجل والوسيلة التي استخدمها زميله في الفقر لينال حُظوة في عينيها. ومنذ ذلك الوقت راح يردّد في نفسه:

«ما حدث لغيري لِمَ لا يحدُث لي؟ وما قيمة الدُّريهمات اليسيرة (القليلة - الزهيدة) التي سأربَحها بعملي لو قيست بالثروة الطائلة التي ستفيضها عليّ الجنية؟»

ما العمل لتحقّق الجنيّة رغبته؟ هذا ما كان يجهله. الى من يلجأ ليرشده؟ لا يعلم. عليه اذًا ان يعتمد على ذكائه ليتوصّل الى ما يصبو اليه. فقرّر ان يتوسّل بشتى الوسائل (يستعين بمختلف الطرق) لينال مُراده. لذلك كنت تراه منذ ان سمع بتلك القصة ينهض من نومه، بعد ان تستسلم امرأته للرُقاد، ويغادر كوخه ويقوم بشعوذاته أمام الكوخ.

ليلة يتربّع على الارض ويضُمّ ذراعيه الى صدره ويخفِض رأسه ويناجي جنيته (يخاطبها). انه لا يراها ولكنه يعتقد انها تسمعه. يشكو اليها امره ويبتهل اليها (يتوسّل اليها - يتضرّع اليها) ان تغدق عليه عطاياها. ويُنهي تمثيليّتَه بكلمات لا معنى لها لانه يزعمُ (يقول دون ان يُثبت قوله ببرهان، يدّعي) ان مثل تلك الكلمات المبهمة تعطِف الجنية عليه وتحفِزها الى استجابته.

وليلة ينتصب واقفًا ويبسُط ذراعيه ويرفَع نظره الى

العلاء وهو يُرسل التنهدات ويصعّد الزفرات. ويعود ايضًا وايضًا فيقصّ قصته على الجنية ويستعطفها ويستحلفها، باسم الفقر الذي يعانيه، ان ترمُقه بنظرة حنان وتُفيض عليه مواهبها. ثم يختُم تمثيليّته كما اختتمها في الليلة السابقة.

ومرّة ثالثة كنت تراه يُقبل ويُدبر (يروح ويجيء) أمام الكوخ يحُثّ الخُطى تدريجًا الى ان يتصبّب العرق منه وينهَك التعب قواه فلا يلبَث ان يرتمي على الارض خائر القوى (ضعيفها) لا حَراك به. فيخيّل الى الناظر اليه انه قد أُغميَ عليه. وما هي الاّ بضع دقائق حتى ينهض ويلجأ الى كوخه.

الى متى ستدوم هذه الشعوذات؟ اللّه اعلم. ولا تظنّ ان اخفاقه، الليلة تِلْوَ الليلة، والاسبوع بعد الاسبوع، قد ثبّط وزعزع ايمانه في جنيته. بل بالعكس كانت ثقته بها تزداد رسوخًا مع الايام (ثباتًا - قوة) ونشاطه يزيد زخمًا. الى ان اتى المساء الذي باغت زوجته بقوله: «أَبشري، يا سكينة، قرب الفرج.» فأغلقت الباب في وجهه وأبقته خارج المنزل.

كان صاحبنا متأكدًا ان الجنية الطيّبة ستحقّق أمنيّته في تلك الليلة. انتصب واقفًا يترقّب قدومها، وقد بَسط ذراعيه وحبَس أنفاسه وجمَد في مكانه كالصنم. فهو يخشى ان يأتي بأدنى حركة فتَجفُل الجنية (تنفر، تهربُ) وتذهب الى غير رجعة. هل يَخيب رجاء صاحبنا فيفقِد عقله ام هل سيظفَر بمشتهاه؟

٦

استيقظت زوجته من نومها على صيحة مدوّية مزّقت حجاب سكون الليل. هبّت من فراشها كالمجنونة وأطلّت من باب الكوخ فرأت زوجها ينطّ ويقفز كالسعدان وسمعته يردّد: «يا لَفرحي، يا لفرحي!» فهو لم ينتبه لها وهي لم تجرؤ ان تكلّمه. وبغتةً نادى بصوت عالٍ: «سكينة، قومي، تعالي.

– انا هنا ما بك؟»

سكن اضطرابه عندما رآها وسمع صوتها فوثب اليها وعانقها:«سكينة، يا سكينة، اتى الفرج.

– ما بك هل جُنِنْتَ حقًّا؟

– اجلسي على هذا الحجر واسمعي». فجلست. روى لها حكايته من أوّلها الى آخرها وقال:«كنت على يقين من انّ أُمنيّتي ستتحقّق هذه الليلة. دخلت الكوخ ولبِثتُ بمكاني. عند الساعة العاشرة شعرت بهينمة بعيدة (صوت خفيّ) يحملها النسيم اليّ تقترب رويدًا رويدًا وتَبينُ أكثر فأكثر الى ان طرق سمعي صوت خفيّ واضح يقول:«استعدّ لتستقبل جنيتك لقد حان وقت مجيئها.» فامتثلت الامر فورًا وتسمّرت في مكاني لا أُبدي حركة. وفجأة - هل تُصغين اليّ يا سكينة؟ - وفجأة أومض نور (لمع) واختفى كأنه البرق واذا امامي شخص لم أتبين ملامح وجهه، جسمه نحيف دقيق شفّاف كأنه خيال، يشتمل بمعطف فضفاض (واسع) يتلاعب به النسيم. داخلني لرؤيته قلق شديد وتنازعتني عوامل متناقضة: خوف وطمأنينة، أمل وخيبة، رجاء وخشية، شكّ ويقين. هَممْت بالكلام فلم يطاوعني لساني. وأخيرًا انفرجت شفتا الشخص عن ابتسامة حلوة أَخّاذة وسمعت صوتًا يقول: «تشجّعْ، يا

جحا، انا جنيتك التي كنت تناجيها. أثَّرت فِيّ ثقتك العمياء فأشفقت عليك ولبيت طلبك.»

وتوارت عن الانظار.

سمَّرتني الدهشة مكاني فبقيت حائرًا ذاهلًا لا أدري ماذا أصنع. أفي اليقظة انا ام في المنام؟ هل أبصرت عيناي حقًّا شخصًا من لحم ودم وهل سمعت اذناي فعلًا كلمات مدهشة عجيبة؟ كيف تحقّقت رغبتي ولم تعطني الجنية شيئًا؟ فحسِبت أني فريسة الأوهام. خفَضت نظري الى الارض فوقع بصري، يا سكينة، يا عزيزتي...فوقع...هل تسمعين؟ فوقع بصري... على...» وراح يهذي كمن فقد عقله.

قامت اليه تلاطفه وهي تقول في نفسها: «وهذا مشهد من جنون زوجي والجنون فنون» (أنواع). عندما عاد من غفلته قال لها: «انظري» وفتح أمام عينيها صندوقا صغيرًا مملوءًا ذهبًا وجواهر وحجارة كريمة. ما ان وقع بصرها عليها حتى شهقت شهقة كادت روحها تخرج معها وخرّت على الارض مَغشيًّا عليها (وقعت على الارض فاقدة الوَعي).

فأسرع جحا الى إبريق ماء وصبّه على رأسها وما زال بها حتى استفاقت من غَشيتها. احتملا الصندوق الى داخل الكوخ وراحا يتأمّلان فيما حواه من نفائس ودُرَر: ماس، ياقوت، مرجان .. يقلّبان تلك الحجارة بأيديهما فيُضيء لمعانها في ظلمة الكوخ ويُبدّدها (يذهب بها). مكثا بجانب الصندوق يَرنوان الى ما احتواه من كنوز ويلتهمانها بأبصارهما ولا يشبعان. تنظُر سكينة الى زوجها ووجهها يضحك سرورًا، لكنّها لا تنبس ببنت شفة لانّ الدهشة عقدت لسانها. ينظر جحا الى امرأته ووجهه يطفَح غبطة، لكنه لا يفوه بكلمة لان الفرح عقَد لسانه (ربطه).

طَلَع عليهما الصبح وهما لا يزالان في حالة ذهول. أخيرًا أفاقت سكينة من غفلتها عندما دخلت الكوخَ أشعّة الشمس فقالت: «ماذا نصنع بهذا المال؟» عاد جحا الى التمثيل. قطّب حاجبيه وحنى رأسه وقال:«اسكتي، دعيني افكّر». صمتت سكينة وبدا عليها الاعجاب بزوجها. لقد اصبح بنظرها من عِظام المفكّرين.

لم يَطُلِ الوقت حتى رفع رأسه وقال مزهوًّا: «اهتديت.

نبقى على ما نحن عليه فترة من الزمن لئلا نَلفِت الأنظار ونثير الظنون. نستبقي القليل من المال بين أيدينا نستعين به عند الحاجة ونُخبئ هذه الكنوز التي لا تقدَّر بثمن في مكان أمين. هذا لا يمنعك، يا عزيزتي، ان تحلُمي منذ الآن بقصر فخم وأثاث فاخر وخدم وحشم...

وكلُّ آتٍ قريب.

– انّ كلامك أثمن من هذه الجواهر. أراك تعظم في عيني بين ساعة وأخرى.» فتنفش جحا كما يتنفش الديك على المزبلة وابتسمت سكينة ابتسامة الارتياح.

٧

مع بزوغ الفجر حمل جحا صندوق الجواهر ومعولًا ورفشًا ومشى وهو يتلفت ذات اليمين وذات اليسار. خرج من القرية دون ان يشعر به احد فاطمأنّ باله وجدّ في المسير.

قُبيلَ الظهر انتهى الى حقل فسيح ليس له أوّل يُعرَف ولا آخر يُوصف: «في هذا الحقل أطمِر كنزي.» ولكن في

أي موضع منه يُخفيه؟ وكيف يهتدي اليه عند الحاجة؟ فهو يأنف ان يشير الى مكان الكنز بعَلامة ظاهرة تستلفت الأنظار. لا بدّ من إشارة يَتبيّنها هو وتخفى على الآخرين. راح يطوف في الحقل يتوقّف حينًا بعد حين، يفكّر قليلًا ثم يهُزّ رأسه ويتابع تَطوافه، لم يقع بعدُ على ما يبحَث عنه. وأخيرًا توقف بَغتة أمام ظل تُلقيه غيمة على بُقعة من الحقل. بدت عليه أمارات البهجة والرضى:«تحت هذه الغيمة أدفن كنزي. فهي عَلامة بيني وبين السماء ولن يطّلع أحد عليها.» ثم رفع نظره الى السماء وخاطب الغيمة قائلًا:«بُوركتِ، ايّتها الغيمة، لقد فرّجت كُربتي وأزحت عن عاتقي حملًا ثقيلًا، فحللت لي مُشكِلة اسْتَعصتْ عليّ. في ظلّك ادفن كنزي. فهو أمانة في عُنقك.»

باشر العمل من ساعته. حفَر حُفرة عميقة ووارى الصندوق فيها. ثم طمَر الحفرة ومهّد التراب (سهّله - سوّاه بما حوله). وقبل ان ينصرف ألقى نظرة على عمل يديه فاطمأنّ باله: «لن يهتدي أحد الى المال.» ورفع عينيه الى الغيمة وهو يُلوّح بيده:«الى اللقاء، أيتها الغيمة اللطيفة.»

وصل الى بيته فخفّت امرأته الى استقبال زوجها الرجل العظيم وهشّت له (ابتسمت له). وَلَجا الكوخ وجلسا الى الطعام فأكلا بشهية. قال جحا:«الحمد للّه، لقد أَدبرت أيام الشقاء: وحقكِ، يا سكينة، لن تصل يد سارق الى كنزنا.

– وأين خبأته؟

– لن أُطلعك على سرّ تسارعين الى إفشائه بثرثرتك.»

فأَمّنت على كلامه (وافقت عليه). وهل تحتجّ على كلام جحا؟

عاش الزوجان أيامًا حلوة ما كانا ليحلما بها. ولّى الخريف وانقضى الشتاء وأقبل الربيع. قال جحا:«آن لنا ان نبتني بيتًا ونغادر هذا الكوخ.

– آن لك، يا جحا، ان تحتلّ المَرتبة الاولى في المنطقة.

– آن لكِ، يا سكينة، ان تكوني السيّدة الاولى بين السيّدات. من غد أذهب في طلب الكنز.

– رافقتك السلامة.»

أَمّ جحا الحقل فبلغه عند الظهر. توجّه رأسًا الى بقعة تظلّلها غيمة. رفع رأسه وحيّاها قائلًا: «أشكرك، ايتها الغيمة

الأمينة، لقد وفيت بالعهد وحفِظت لي وديعتي.» وراح يحفِر ويحفِر دون ان يجد لصندوقه أثرًا. وعندما مالت الشمس الى المغيب غادر الحقل على ان يرجِع في اليوم التالي. وهكذا كان. فعَمد الى ظلّ تُرخيه غيمة وراح يُنقّب ولكن دون جدوى. ورجَع في الأيام التالية وواصل العمل أيامًا وشهورًا فذهبت أتعابه سُدًى (دون فائدة، جدوى). عندما يئِس من العثور على الكنز كفّ عن البحث والتنقيب وانقلب راجعًا الى كوخه والألم يُدمي قلبه.

* * *

بينما كان جحا في طريق العودة، التقيتُ الجنية التي قصّت عليّ هذه القصة. رأيتها تَتأبّط صندوقًا صغيرًا. وقبل ان أستفسرها الأمر قالت: «هذا هو الصندوق الذي وهبته لجحا، لم يعرف ان يحافظ عليه. لقد أخفاه في موضع يستحيل عليه ان يهتدي اليه. فالاحمق احمق ولو طمرته بالخيرات. وهل المال يصنع الرجال؟

– وهل من دواء؟»

فردّدت قول الشاعر:

لكلِّ داءٍ دواءٌ يُسْتَطبُّ به

الا الحماقَة أعْيتْ من يُداويها.

وأضافت: «قد يجد في العمل بعض الدواء لحماقته».

في هذه الاثناء كان جحا يقول لامرأته: «نعود الى العمل غدًا ونحصّل قوتنا بكدِّ أيدينا وعرق جبيننا.»

أسئلة

١) أعط عنوانًا لكلّ من اقسام القصّة (أشرنا الى الاقسام بالارقام).

٢) اختصر ببضعة أسطر كلًّا من الاقسام التالية.

٣) لخص القصة فيما لا يقل عن عشرين سطرًا.

٤) اذكر بعض ميزات جحا وأثبت قولك بشواهد من القصة.

٥) تراجع جحا امام الصعوبة مرتين: بين ذلك. ما رأيك في تصرّفه؟

٦) قارن بين موقف سكينة من زوجها قبل ان يحوز على الكنز وموقفها بعد ذلك.

٧) متى كانت سكينة تعود فرحة الى بيتها ومتى كانت تعود حزينة؟

٨) ما الذي كان يقعد بجحا عن العمل؟

٩) لماذا أغْمِي على سكينة؟

١٠) خبأ جحا كنزه في بقعة تظللها غيمة. هل يدل هذا العمل على حماقة؟ لماذا؟

١١) انسخ ما لا يقل عن عشر كلمات جديدة وردت في النص واذكُر من مشتقاتها فعلًا واسمًا موصوفًا وصفةً.

القصة الثانية

يا جمّال

قيل: «من نال نعمة يرى نفسه اكبر منها لم يتغيّر لها ومن نال نعمة رآها اكبر من نفسه افسدته.»

١

كان في قديم الزمان أعني لمئات من السنين خلَت - تاجر طيّب الأُحدوثة (يذكُره الناس بالخير في حديثهم)، اسمه ابو زياد. وابو زياد هذا تاجر من أفاضل التجّار ان لم يكن من كِبارهم. وهو يتزيّن (يتحلى) بمزايا نادرة وصفات ممتازة. عُرف عند الخاصة والعامّة بصدقه وأمانته واشتهر بين زملائه وعارفيه بلطف معشره وحُلْو حديثه.

ومن خصاله المحمودة أيضًا القناعة. لم يكن صاحبنا تاجرًا طمّاعًا ولم يحاول مرّة واحدة ان يُحقّق أرباحًا

فاحشة على حساب احد من زبائنه فقيرًا كان أم غنيًّا، كبيرًا أم صغيرًا. ولم يجرّب أن يستغلّ الظروف الطارئة ليبيع بضاعته بأثمان باهظة (مرتفعة يصعب عليك دفعها). بل يرضى بمكسب معقول يكفُل له حياة كريمة ويمكّنه من متابعة عمله.

وأخيرًا أذكُر لك خَلّة من خلاله المستحبة: كانتِ الاسفار تستهويه (تأخذَ عقله). فهو لم يفتَح متجرًا في المدينة التي كان يُقيم فيها، بل كان يغتنم فرصة سانحة ليشتري ما يُعْرَضُ عليه من بضاعة فيحمِلها ويتنقّل بها من بلد الى بلد ومن مدينة الى أخرى.

هذه بضاعة ينذُر (يقِلُّ) وجودها في القاهرة فيتوجّه اليها ببضاعته ويبيعها. وفي الوقت عينه ينتهزها فرصة ليمتّع نفسه بما في القاهرة من الآثار القديمة القيّمة. وهذه سلعة تروج سوقها في الشام فيؤمّ ابو زياد دمشق حيث يُصرّف ما احتمله وينعَم بما في المدينة من مشاهدَ وأطايب. ولا تظنّ، أيّها القارئ الكريم، انّ تاجرنا كان يَقضي وقته كلّه في الأسفار. انه لم يَصلْ قطّ سفرة بسفرة، بل كان بعد كلّ

منها يعود الى مدينته وبيته ويُمضي فترة من الزمن، تقصُر اوتطولُ، وفقًا للظروف. كان يعمل بجد ونشاط اذا حان وقت العمل، ويستسلم للراحة فينسى مشاكل التجارة وهمومها اذا أزِف (أتى) وقت الراحة.

كيف كان ابو زياد ينقُل بضاعته من مكان الى مكان؟ طبعًا لم يكن يتحمّلها على ظهره كما كان يفعَل، لسنين مضت، بعض الباعة المتجولين. انت تعلم، ولا شكّ، انّ وسائل النقل في الأيام الغابرة (السالفة، الماضية) كانت على غير ما هي في ايامنا هذه. لا سيّارات ولا طائرات. كانت الأسفار تكلّف أصحابها وقتًا طويلًا ومشقّة جمّة. كان الجمل واسطة النقل المفضّلة ان لم نَقلِ الوحيدة اذا طالت المسافة واقْتضت السفرة قطع الصحاري والقفار. والجمل يتميّز من سائر الدوابّ بقوّته وصبره على العطش. وجرت العادة، نظرًا لأخطار السفر، ان تتم الرّحلات في قافلة تضُمّ رهطًا من التجار (عدد لا يتجاوز العشرة) يستكرون جماعة من الجمّالين.

كان لتاجرنا جار جمّال اسمه أبو مراد. اعتاد ابو زياد

ان يستصحبه في تنقلاته فيُحسن معاملته ويسخو عليه بالأجرة، وقد يضاعفها له اذا لاقت تجارته رواجًا وتوافرت أرباحه. فيردّد القول المأثور: «كلْ وَأَطْعم.»

وهكذا تمكّنت روابط الأُلفة بين الاثنين فأصبحا صديقَين حميمين يُخلص كلّ منهما لصاحبه إخلاص الأخ لأخيه. كان ابو زياد يُولي صاحبه ثقته ويأتمنه على تجارته وماله. وكانت تصرّفات الجمّال تشير الى أنه أهل لتلك الثقة جدير بها. فما قام التاجر برحلة الّا بصحبته، ولا رضي ابو مراد ان يعمل الّا له. يُمكنك ان تهنّئهما بتلك المودّة التي استوثقت بينهما وتتمنّى لهما دوامها.

٢

ذكرتُ لك، أيّها القارئ العزيز، ان ابا زياد كان يعود الى مدينته بين رحلة ورحلة. فيقيم فيها بعض الوقت ليأخذ قسطًا من الراحة ويجدّد الصلات بينه وبين زملائه ومعارفه، وهم كثيرون، لانه كان تاجرًا محبوبًا ومحترمًا. ما ان يذيع نبأ عودته (ينتشر خبرها) حتى يتوافد أصحابه الى داره

فيستقبلهم بالترحاب ويُكرمهم ويسخو في ضيافتهم. فما تَبرّم بزائر قطّ (تضجّر منه)، ولا تردّد أبدًا في إسداء خدمة، ولا صرَف وجهه عن محتاج. وكان زائروه ينقلبون الى بيوتهم وهم يُثنون عليه أطيب الثناء ويلهَجون بذكره ويعدّدون مناقبه (صفاته الحميدة) ولا تسلْ عن السهرات الممتعات التي أحياها ابو زياد مع زائريه. كان يقُصّ عليهم أخبار أسفاره، ويحكي لهم ما جدّ له من طريف، ويروي ما تعرّض له من أخطار، ويصف ما شاهده من عجائب وغرائب. فيُصغون اليه بانتباه ويشربون كلامه شربًا. واذا قال له قائل: «يا ابا زياد، انك تُكثر من الأسفار، وفي الأسفار الأخطار. أما آن لك ان تُقلع عن التنقّل (ترجِع عنه، تعدل عنه) فتفتح لك متجرًا في مدينتك وتستقرّ؟ ان اصحابك يشتهون لك ذلك.»

يجيب ابو زياد والابتسامة ترتسم على شفتيه: «يا صاحبي، اني أَقدُر هذه العاطفة حقَّ قَدْرها وان كنت لا أستحقّها. ان فكرة الاستقرار، والحقُّ يقال، راودتني أكثر من مرّة ولا سيّما بعد سفرة طويلة ومُضْنية (مُتعبة). ولكن

ما ان أستريح من عَنائها حتى يعاودني الحنين الى التنقّل في بلاد اللّه، وتتملكني رغبة جامحة في التعرّف على مدن لم يَسبق لي ان وطئتها قدماي. فأقول في نفسي: احزمْ أمرك يا ابا زياد وسرْ على بركة اللّه. فانك تجمَع الى الفائدة المادّيّة متعة العين والترفيه عن النفس وهكذا أراني بين ليلة وضُحاها قد قرّرت السفر. عاد التاجر مرّة من سفره فجاءه احد اصدقائه الأخصّاء يسلّم عليه ويُهنّئه بسلامته. ثم قال له: «وأخيرًا عدت، يا ابا زياد.

– قد عدت كما ترى.

– لك البشرى، يا صاحبي.

– خيرٌ ان شاء اللّه.

– فرصة قلما يسنَح مثلها ايّاك ان تفوتك.

– وما الخبر؟

– لقد انفتح امامك باب للكسب لم تكن لتحلُم به فادخُلْه.

– ومن قال لك اني أحلُم بالكسب؟

– تاجر ولا يترصّد فُرَص الربح؟ لست غريبًا عن هذه

المهنة. أَعرْني سمعك.

– كلّي آذان صاغية.

– علِمت ان لدى التاجر فلان بضاعة وافرة كسَدَت سوقها في هذه المدينة، وسوف يتخلّى عنها بأبخس الاثمان (ارخصها) بدلًا من ان يُكدِّسها (يجمعها بعضها فوق بعض) في مخزَنه. ما رأيك لو اشتريتها وحملتها الى مدينة لها فيها سوق، فتبيعها بأغلى الأسعار وتدُرّ عليك أرباحًا طائلة تُغنيك عن العمل باقي حياتك؟

– لا سبيل الى ذلك.

– ولكن، يا ابا زياد، هذه فرصة العمر ان أفلتت منك لن تعود. أمعِنِ النظر في الامر قبل ان تتّخذ قرارًا سوف تندَم عليه.

– أشكُرك على هذه البادرة الطيبة. إنّما اعْلَمْ اني لن اعود عن قصدي. اتريدني ان أُحضِّر سفرة جديدة ولم انفُض عني بعد غُبار السفر؟

– ولكن للضرورة أحكام. أتترك غيرك ينتزع منك لقمة وصلت الى الفم؟

– يا صاحبي، عندما تخيّرت التجارة رسَمت لنفسي خُطّة لن أحيد عنها. جعلت التجارة وسيلة للعيش لا غاية لجمع المال وتخزينه. يكفيني ان أُؤمّن ما احتاج اليه لأعيش موفور الكرامة، مرفوع الرأس، لا أستعطي احدًا ولا ابذُل ماء وجهي امام شخص أيًّا كان (أتذلّل له). بحقّك قلْ لي أيّ فائدة تعود عليّ من ثروة أخزنُها ولا أجد مجالاً للانتفاع بها؟ أكرر لك شكري وامتناني، وبوُسْعك ان تعرض الامر على من تشاء.»

٣

مرّت الأيام وتوالت الرحلات (تتابعت). كان الحظّ يحالف تاجرنا فيعود الى بيته سالمًا معافًى حامدًا شاكرًا. وفي ليلة من الليالي بينما كان أصحابه يتحلّقون حوله فاجأهم بقوله: «اني أُعدّ أهمّ رحلة قمت بها حتى الآن وآمل ان تكون الأخيرة. لقد تقدّمت في السنّ وشبِعت نفسي من الأسفار فلا طاقة لي بعدُ ان أَتحمّل مشاقّ الطريق ومتاعب التجارة.» فهلّل الحاضرون لكلامه (فرحوا به فرحًا

جزيلًا) ورجَوا له ان يؤوب اليهم بخير وعافية. وانفضّ عِقْد الجماعة (انفرط- تفرّقوا) ورجَع كلّ الى منزله.

ابتاع ابو زياد من المتاع ما خفّ حمله وعظُم ثمنُه. وكان ابو مراد رفيقه الوفيّ وساعده الأيمن يعاونه على تجهيز الرحلة. ولما أكمل عُدّته وتمّ له ما أراد التحق بقافلة تُيمِّم السودان (تقصِد) وتضُمّ عددًا من التجار والعشرات من الجمال المثقّلة بأحمالها. حقًّا هي رحلة طويلة وشاقة تكتنفها المصاعب وتَحُفّ بها الأخطار. ولكن صاحبنا اراد ان يُتوّج بها مغامراته فتكون خاتمة حياته التجاريّة.

تحرّكت القافلة على برَكة الله ترافقها أدْعية الأقارب والاصدقاء. سارت الأمور على أحسن ما يرام ودامت الحال هكذا بضعة اسابيع وقد توغّلت الجماعة في الصحراء. وبغتة حدث ما لم يكن في الحُسبان.

في يوم شديد القيظ أحسّ ابو زياد بفتور في همّته ودُوار في رأسه أقعده عن متابعة السير. توقّفت القافلة والتفّ حول التاجر رفاقه يستفسرون الخبر وقد شقّ عليهم ما ألمّ بزميلهم. ألْفَوه (وجدوه) في حالة تبعَث

على القلق وقد انتابته الحمّى وانْتظمته الرِّعدة. ورأَوا أنفسهم عاجزين عن ان يُسعفوه فحاروا في أمرهم. فخاطبهم قائلًا: «هوّنوا عليكم، يا اصحابي. لا حيلة لكم فيما نزل بي (لا تستطيعون شيئًا)، انتم براء من موتي اذا ما وافتني المنون. تابعوا طريقكم لئلا تهلكوا جميعًا في هذا القفر.» فلم يجدوا بدًّا من الاذعان لقوله فودّعوه وواصلوا المسير.

اما ابو مراد فتخلّف عنهم الى حين لعلّ صديقه عنده ما يوصيه به. فقال له التاجر: «الوداع، يا صديقي الأمين، واصل الرحلة واتَّجِرْ بما تحمِله من سِلَع واحتفظ بالمال. اذا قضيتُ نَحبي (متُّ) تصرّف به كما يَحسن في عينيك فقد وهبته لك. واذا قيّض لي اللّه النجاة (يَسَّرَ، سهّل لي الخلاص) استوفيتك نصفه وباركت لك النصف الباقي. والآن الحَق القافلة دون إبطاء لئلا تَضلّ الطريق وتعرّض نفسك للموت. استودعك اللّه.» فانكبّ ابو مراد على صديقه يعانقه ويذرِف الدموع ثم خَلّف له (ترك له) قِربة ماء وبعض الزاد وودعه وفي القلب غُصّة.

مضى يوم ويوم وابو زياد يعاني نوبات الحمّى ويتأرجح بين الحياة والموت. لقد قَطع كلّ أمل بالشِّفاء وهو يتوقّع ان يلفظ أنفاسه الأخيرة بين ساعة وأخرى. فأسلم امره للّه وانتظر ساعته (أجلَه، موتَه).

في هذه الأثناء مرّت به قافلة عائدة من السودان فأشفقوا عليه واحتملوه معهم الى القاهرة. كانت حالته قد تحسنت بعض الشيء ولم ينقض بضعة ايام حتى تماثل الى الشفاء ودخل في طَور النَّقاهة. لما بلغوا القاهرة انفرد عنهم بعد ان شكرهم على معروفهم: «اني مَدين لكم بالحياة ولن انسى جَميلكم مدى العمر.» وقرّر ان يقيم في القاهرة بعض الوقت، ريثما يستعيد كامل قواه، ولكي يترقّب رجوع ابي مراد، فيؤوب بصحبته الى مسقط رأسه حيث يقضي البقية الباقية من عمره.

تولّت الاسابيع والشهور (مضت) ولم يسمع بخبر القافلة فآثر حينئذ ان يقفِل راجعًا الى بلدته على أمل ان يلتقي رفيقه هناك. لما شاع خبر مقدَمه خفّ اصحابه

وزملاؤه يرحّبون به ويبتهجون بسلامته وكانوا يحسَبونه في عالم الاموات. فدهِش لما أبصر بين زائريه رفاق تلك الرحلة المشؤومة، وازداد دهشة لما لم يشاهد بينهم الجمّال. لعلّ مصيبة نزَلت به فصاح: «بحياتكم اين اخي ابو مراد وكيف حاله؟

– فليطمئنّ بالك هو بخير وعافية.» ثم سردوا له وقائع السفرة منذ ان فصلوا عنه (افترقوا عنه) حتى عودتهم الى وطنهم سالمين وأضافوا:

«اما الجمّال ابو مراد فقد وُفِّق الى بيع بضاعتك بأثمان غالية جنى من جرّائها ثروة لا تُقدّر. ولما انهينا اعمالنا جمعنا امرنا وعدنا. وعندما بلغنا القدس قال لنا صاحبك: سأمكث هنا فترة من الزمن، ولم يُفصح عن مراده (يُبين قصده). بل اكتفى بالأشارة الى انّ عليه ان يُنجز بعض الاشغال قبل ان يوافي المدينة.» تنفّس ابو زياد الصُّعداء قال: فرّجتم كُربتي وأرحتم بالي. ابو مراد رجل نشيط حكيم. لا شك أن فرصة للربح سنحت له فاهتبلها (اغتنمها) وسوف لا يُبطئ مجيئُه.

٥

تتالت الأيام والشهور وولّت سنتان ولم يعد ابو مراد. تُرى ماذا جرى له، هل حلّ به مكروه؟ إليك الخبر.

افترق ابو مراد عن الجماعة في القدس كما سبَق لنا القول.

وبعدما صفا له الجوّ قال مخاطبًا نفسه: «بئس الحياة التي عشتها حتى الآن، يا ابا مراد، حياة عناء وشقاء. أتت الساعة التي كنت تتحيّنها فانسَ انك عمِلت جمّالًا اذ لا يليق بمن يملك ثروة مثل التي تمتلكها ان يزاول هذه المهنة او يُدْعى بهذا الاسم. لذلك أخلَع عليك لقبًا جديدًا يتلاءم ووضعك الجديد، من الآن فصاعدًا أصبحت الشيخ ابا مراد.» قال هذا وسارع الى بيع جماله وارتدى ثيابًا ثمينة مُزركَشة بالقصب وخيوط الذهب وانتقل الى مدينة لا يعرِفه فيها أحد فاستوطنها (اتّخذها وطنًا). اشترى دارًا فخمة فأصبح قِبلة أنظار اهل المدينة وسَراتها (وجوهها، أعيانها): «للّه درّك، يا ابا مراد، لقدْ أُنْزِلْتَ المنزلة التي تستحقّها.» وما عَتّمَ ان أولم الولائم وأقام الحفلات ودعا

اليها وجوه البلدة وعلى رأسهم الوالي (الحاكم). فانطلقت الالسنة بالثناء عليه وامتدح الناس كرمه وسخاءه وانحنت الرؤوس امامه باحترام.

نعم، من وقت الى آخر، كان ضميره يَنخَسه ويوبّخه على خيانته لصديقه ووليّ نعمته. ولكنه كان يختلق الأعذار (يخترعها) لِيُخمد ذلك الصوت المزعج: «ان صديقي قد مات لا مَحالة. عندما غادرته كان على وَشْك ان يلفظ روحه. ومن أين يأتيه الخلاص في ذلك القفر وكيف تتسنّى له النجاة؟ اما قالَ لي: اذا متُّ احتفظ بالمال. رحمك اللّه يا اخي، ابا زياد. انا لم أجحد فضلك (أُنكره) ولن أنساه ما حييت.» وهكذا ظنّ الجمّال انه وفى صديقه حقّه وجاز ان يستولي على مال اؤْتُمِنَ عليه وهو مرتاح البال.

وقد يهادنه ذلك الصوت الملحاح الى حين ثم يعاود فيدوّي في اعماقه:«ما اسرع ما جزَمت بموت صديقكَ يا ابا مراد! ما ضرّك لو استقصيت اخباره (تتبّعتها الى النهاية) قبل ان تستحوذ على ماله؟ حتى اذا تثبتَّ من انه لقي حتفه

حلّ لك ان تحوز تركته.» ولكن الجمّال، وقد ذاق طعم الغنى، ابى ان يُذعن لصوت ضميره. فهو يخاف ان تكون الأنباء على غير ما يشتهي فيتعكّر صفو عيشه ويضطرّ الى اقتسام ثروة يحسَب ان فيها سعادته.

ومرة ثالثة يحاول ان يُخدّر ذلك الصوت اذا ما عنّ له ان يلاحقه:«صديقي لديه من المال ما يوفّر له حياة محترمة وليس له وُلد ولا زوج. وقد قضى عمره لا يقيم للغنى وزنًا، فقد سمِعته يردّد اكثر من مرّة: يكفيني من المال ما أُقيم به أَوَدي وأصون كرامتي. فهو عُربونُ الشهامة والنزاهة. واللّه لو عَرفته في ضيقة لتخلّيت له ليس عن نصف الثروة فحسب بل عن الثروة بكاملها. ولا أظنّه الا سوف يبارك لي بالمال لو كان بعدُ في عالم الأحياء. للّه ما أوفاك، يا ابا زياد، وما أسمى اخلاقك...»

وانْتهت المعركة بين الجمّال وضميره عند هذا الحدّ. لقد أدلى ببراهين قاطعة لا تقبل الجدل (لا تُرَدُّ) ولن يعود بعد الآن فيخوض في الموضوع.

في هذه الأثناء كان ابو زياد يترقّب اياب صديقه بفارغ الصبر ويتغنّى بصدقه وأمانته. ما انْ يبلُغ مِسمعه ان تاجرًا عاد من رحلة حتى يهرَع اليه (يسرع) ويسأله: «ما عندك من الاخبار؟ هل التقيت صديقي ابا مراد وهل سمِعت عنه شيئًا؟» وكان الجواب دائمًا: «لم أرَه ولم أعثُر له على أثر.» فضاق صاحبنا ذرعًا وأظلمت الدنيا في عينيه فاعتزم أن يقوم بجولة. وعندما سأله اصحابه: «الى اين، يا ابا زياد؟» اجاب: «لا ادري الى أين ستقودني خطاي. انما اشتقت الى صديقي وأُشفق (أخاف) ان يكون لحِق به أذًى. لن اعود أو أقف له على أثر.»

راح يُنقِّل خطاه من مدينة الى اخرى يتنسّم أخباره (يلتمسها) دون جدوى. فقنَط من نجاح مسعاه او كاد وهمّ بان يعود أدراجه. ولكنه قال في نفسه: «بقيت مدينة لم أتفقّده فيها ولم تطأها قدماي من قبل. فأَغتنمها فرصة لأزور تلك المدينة، فان حظِيت بلُقياه كان به والا نكَصت على اعقابي.» (رجَعت).

كان من عادته، اذا بلَغ مدينة ما، ان ينزل في الفندق ويُقيم بضعة ايام يتجوّل في اثنائها يبحَث عن ضالّته ويتسقّط الاخبار (يتتبّعها). بات ليلته في الفندق. وفي الصباح راح يطوف في المدينة ويدور في شوارعها ويُنعم النظر فيما يقع عليه بصره من مشاهد أخّاذة وبنايات فخمة. لفت نظره قصر قلّما شاهد مثله في رحلاته المتعدّدة. فوقف يتأمّله ودفعه الفضول (حُبُّ المعرفة) فسأل أحد المارّة عن اسم صاحب القصر فأجابه على الفور:«وهل من يَجهَل قصر الشيخ ابي مراد؟»

خفَق قلب التاجر لسماعه هذا الاسم:

«ابو مراد! يا ترى هل ظفِرت ببُغيتي بعد هذا العناء الطويل؟» وعاد يتفحّص القصر فبدا له انه حديث البناء وان أشجار الحديقة لا تزال في أوّل عمرها. فاستوقف رجلاً وسأله:«قد أُعجِبت كلّ الاعجاب بهذا القصر، هل تعرف متى اكتمل بُنيانه؟

– لم يمضِ على بُنيانه أكثر من سنتين.»

حينئذ لم يبقَ لديه أدْنى ريب في هُوية صاحب القصر،

هو صديقه الجمال. ولكن كيف يُفسّر وجوده في هذه المدينة وإقامته فيها؟ ولِمَ قطع عنه اخباره:«ان في الامر لسرًّا ولا مَناصَ لي من ان اجلوه.» (أكشِفه).

٧

دخل الحديقة فاذا به يلقى صديقه وجهًا لوجه. امتعض (اشمأزّ) الجمّال لهذه المفاجأة لكنه تمالك. تقدم منه التاجر فاتحًا ذراعيه ليعانقه، اما هو فبقي في مكانه كالصنم لا يُبدي حَراكًا. جمَد التاجر وقد كاد صوابه يَطير فصاح به:«يا ابا مراد، هل نسيت رفيقك ابا زياد؟»

فحدّق اليه الجمّال وقد قطّب حاجبيه وقلَب شفتيه وهزّ رأسه وشمَخ بأنفه:«ابو زياد ! لا أعرف شخصًا يحمِل هذا الاسم. على كلٍّ يلوح لي انك حديث العهد بمدينتنا. تَفضّلْ وادْخل بيتي وأقم في ضيافتي ما طاب لك المُقام.»

حار التاجر في امره، هل يُكذّب عينيه وأذنيه؟ هو ابو مراد بقامته وتقاسيم وجهه ونبرة صوته: «لا ريب انه يتنادر عليّ (يهزل، يمزح) ولن يلبَث ان يضع حدًا لهَزْله فيستقبلني

استقبال الأخ لأخيه.» اما الشيخ فاكتفى بالقول: «ما بك، يا سيّدي؟ تفضّل. أرى ان الدهشة سيطرت عليك لأني لستُ الشخص الذي جئت في طلبه. انا آسف جدًّا اذ اتّفقت الأسماء واختلفت الأشخاص.

– أجادٌّ فيما تقول؟

– وهل من داعٍ الى المُزاح؟ أراني أمام رجل أجهله وأسمَح لنفسي بان أمزَح معه؟

– أما عمِلنا في التجارة معًا عشرات السنين وكنت تحمِل لي بضاعتي على جمالك؟

– كنت أَنقُل لك بضاعتك على جمالي ! الشيخ ابو مراد جمّال ! هل جُنِنْت، يا رجل؟

والله لولا حُرْمةُ منزلي... ولكن دعنا من هذا. هل لك ما تقوله غير ما قلت؟» انسحب التاجر ولم يُحِرْ جوابًا (لم يتكلّم) وقد حزن أشدّ الحزن وهو يكاد لا يصدّق ما سمِعه من صديقه: «قاتلَ اللّه المال! عِشرة عمر تُفسدها حَفنة من الذهب! واللّه لو سألني لوهبته كلّ ما أملِك وافتديت صداقة أصبحت جزءًا من حياتي. ابو مراد الذي أوليته ثقتي

ينقلب لصًّا خائنًا!»

عاد التاجر الى الفندق الذي حلَّ فيه والألم يحُزّ في قلبه والمرارة تملأ نفسه والاشمئزاز يستولي عليه. همّ بالعودة الى وطنه ولكن عزّة نفسه أبت عليه إلاّ ان يكشف أمر الجمّال ويفضَحه: «ما العمل؟ كيف أُثبت دعواي اذا رفَعت الأمر الى الوالي؟ وهل أستدعي زملائي لأستشهدهم وهم يُقيمون على مسافة مئات الأميال من هذه المدينة؟ كلّا، لن أُزعجهم وأُحمّلهم مشاقّ السفر. غدًا أعرض الأمر على الوالي واستمزج رأيه (أستطلعه رأيه).

٨

دخل التاجر على الوالي فاستقبله أحسن استقبال وأكرم وِفادته. وكان الوالي حاكمًا عادلًا وفهيمًا يفرِض هيبته واحترامه على رعيّته. لا يتبرطل ولا يحابي بل يعطي كلّ ذي حقّ حقّه. قصّ عليه ابو زياد قصته من ألِفها إلى يائها (من أوّلها الى آخرها) والوالي يُنصت اليه والاهتمام بادٍ على مُحيّاه. وأنهى كلامه قائلًا: «بِمَ تنصَحني، يا مولاي؟»

أطرق القاضي وقد اثارت الرواية دهشته واستغرابه، التفت الى مُحدِّثه قال: «ان قصتك حيَّرتني. لمست الصدق والاخلاص في كلامك وآمل ان لا تَضيع فيك فِراستي. ولكن ما تدّعيه أمر خطير. فالشيخ ابو مراد، على ما يبدو، رجل معروف عريض الجاه رفيع المنزلة، يحترمه اهل البلدة ويُقدِّرون فضله وسخاءه ولطف معشره ودماثة أخلاقه.

- أُؤمِّن على كلامك، يا مولاي. فقد خبرت فيه هذه الصفات وأَمثالها لذلك توثّقت عُرى الصداقة بيننا (تمكّنت) وعِشنا زهرة عمرنا كأَخوين. والى الآن يتعذّر علي ان أُصدّق ما شاهدته عيناي وسمعته أذناي. واذا أَشرْت علي بالعودة من حيث أتيت فعلت غير آسفٍ على شيء الّا على مودّة ذهبت ضحيّة المال.

- أُشير عليك بالبقاء. لقد أَثرت فضولي وسأُعير قضيّتك ما تستحقّ من الاهتمام وان كنت لا أَتبين الآن الطريقة التي سأَتّبعها لأجلو الحقيقة. وافِني غدًا في مثل هذه الساعة فأَجمَعك بغريمك.»

هاجت المدينة وماجت عندما انتشر الخبر وأخذ الناس

يتساءلون: «من هو هذا الغريب اللئيم الذي جاء يتطاول على الشيخ ابي مراد (يترفّع عليه، يحاول ان يحطّ من قدره) مفخرة بلدتنا؟ ومن يسَعه ان يُغبِّر على رجل من امثاله؟» عندما وفد المتخاصمان كانت ساحة الدار تعجّ بالناس (تزدحم بهم) ومُعظمهم من أعيان البلدة وقد ساءهم ان يأتي رجل يجهَلون أصله وفصله فيفتري على واحد منهم (يدّعي عليه زورًا).

جلس الوالي الى القضاء ومثل بين يديه المُدّعي والمُدّعَى عليه. التفت القاضي الى ابي زياد قال: «ما شأنُك، يا رجل، وما تطلُب؟»

قصّ التاجر قصّته التي تعرفها وأردف: «أطلُب، يا مولاي، ان تُنصفني من خصمي وتحكم عليه بأن يردّ ما استلبه مني من مال.

– وهل لديك شهود يُعززون كلامك؟ (يُثبتونه)

– كلا يا مولاي.

– وهل عندك حُجّة تُدلي به لتُثبت صِحّة دعواك؟

– كلاّ، يا سيّدي القاضي.

– هل تُقسم بالله انك تقول الحقّ؟

– نعم يا مولاي.» وأقسم التاجر بالله العظيم انه صادق في كلامه.

توجّه القاضي الى الشيخ ابي مراد وقال: «بِمَ تُجيب عمّا يدّعيه خصمك؟

– مولاي، قصّة هذا الرجل أذهلتني. كنت أُروّح عن نفسي (أَتفرّج – أكشِف كُربتي) في حديقة قصري عندما فجأني هذا الرجل بزيارته. وثب اليّ ليعانقني وهو يُردّد: آه يا صديقي، طالت غيبتك وانقطعت عني اخبارك.

لقد طوّفت في مدن عديدة أقتفي أثرك وقد كلّل مسعاي بالنجاح... طبعًا لم أبادله أشواقه الحارّة ولم افتح ذراعيّ لأعانق شخصًا لم يسبِق لي ان تَشرّفت بمعرفته، لا بل تَحَفَّظْت وقد رابني أمره: أمجنون هو؟ او بالاحرى محتال جاء يَتحيَّل عليّ (يحتال عليّ) ليبتزّ مالي. على كلٍّ صرفت النظر عن هذه الفكرة وعددته عابر سبيل فدعوته الى داري وبذلت له ضيافتي، يقيم عندي ما حلا له المقام. وانت تعلم، يا مولاي، ان بيت الشيخ ابي مراد مفتوح امام

الجميع. اذا ما استضافني احد أضفته وأَنزلته على الرحب والسَّعة، فيمكُث عندي ما شاء. واذا أراد الانصراف شيَّعته مكرَّمًا وزوَّدته بما يحتاج اليه في طريقه.

«اما صاحبنا فرفض ضيافتي وادّعى انه يفتّش عن صديق له اسمه ابو مراد عمِل عنده جمّالًا. فقلت له: ويحك، هل ترى فيّ سيماء الجمّالين (علامة)؟ ما شأني وجمّالك، يا رجل، وهل كل شخص يسمّى ابا مراد يكون جمالك؟ اما تستحي وتؤاخذ نفسك؟ واللّه، يا مولاي، لقد غاظني كلامه وأحنقني وكدت أُؤدِّبه. ولكني عدت الى نفسي وضبطتها: عار على الشيخ ابي مراد ان يمتهن كرامة غريب أفقدته الخيبة رُشده. كان يظنّ لأوّل وهلة اني بغيته فساء ظنه.

«ولا اراني بحاجة ان أفنّد أقواله (أُخطِّئها) وأُبطلها فهو لم يأت ببرهان ولم يقم دليلًا ولم يُدلِ بحُجّة. مهما يكن من امر قد تعودت ان أقابل السيِّئة بالحُسنى. يشُقُّ عليّ ان يعود هذا الغريب الى وطنه صِفر اليدين لئلّا تُسوّل له نفسه ان يقول: لُذتُ بالشيخ ابي مراد وخذلني، ولئلّا يقال ان

رجلًا دخل مدينتنا ولم يتفضل عليه الشيخ ابو مراد. لذلك أُقطعه مبلغًا من المال يسهّل له الرجوع الى وطنه ويُعينه على الأيام. وأترُك، لك، يا مولاي، ان تُقدّر قيمة هذا المبلغ.»

عندما فرغ الشيخ من كلامه كاد الحاضرون يصفّقون له لولا حرمة المكان وهيبة القاضي. لقد هزّتهم أقواله وحرّكتهم أرْيَحِيَّتُه وسحرتهم فصاحته وأقنعهم مَنطقه. فحدجوا التاجر بنظرات تنِمّ عن شفقة واحتقار ولسان حالهم يقول:«مسكين هذا الرجل لقد جمع الوقاحة الى سخافة العقل.» خيّم على القاعة صمت مهيب. شخص الحاضرون بأبصارهم الى الوالي وحَبسوا أنفاسهم وراحوا يترقّبون الحكم. والحكم في نظرهم معروف لا يقبَل الشكّ ولا الجدل: سيُبرِّئُ ساحة الشيخ ويطرُد ذلك التاجر الوقح الذي سمَح لنفسه بان يُشنّع بصيت رجل فوق الشبهات. رفع الحاكم نظره الى الشيخ وقال له:

«لقد أثر فيّ كلامك بالغ التأثير. انما عندي بعض الاسئلة أطارحك اياها.

– أرجوك، يا مولاي، سل ما تشاء، انا رهن إشارتك.

– قد استوطنت هذه المدينة، على ما أظنّ، منذ أمد قريب، كم مضى من الوقت على اقامتك بيننا؟

باغت السؤال الشيخ فارتبك ولكنه سرعان ما ضبط نفسه واستعاد رَباطة جأشه فأجاب والابتسامة تَتيه على شفتيه: «مضى على اقامتي في ظلّ حِماكم ثلاث سنوات.

– واين كنت تقيم قبلًا؟

– قصتي طويلة سأوجزها بكلام قليل. تنقّلت في أماكن عديدة. أقضي اسبوعًا هنا وشهرًا هناك. أمضي بضعة اشهر في مكان ثالث وقد امتدّت اقامتي احيانًا الى أكثر من سنة اذا ما راقني المكان. ولكن كلما قرّرت ان أستقرّ كان يحدُث ما يُنفرني إلى التَّرحال: لقد كُتِبَ عليّ التطواف في الأرض. واخيرًا قادني حَظّي الى هذه المدينة فأسرتني. فقلت في نفسي: قد اهتديت الى ضالّتي سأعيش هنا ما تبقّى لي من العمر.

– هل تحلِف بالله انك تقول الحق؟

– نعم يا مولاي». وحلف الشيخ ابو مراد بالله العظيم انه يقول الحقّ دون زيادة او نقصان. فالتفت القاضي الى

الخصمين وقال: «رفعنا الجلسة الآن على ان تعودوا اليّ بعد ثلاثة ايام».

٩

في اليوم المحدّد أَمّ التاجر دار الوالي وتبعه الشيخ ابو مراد يواكبه أعيان المدينة. جلس القاضي على كرسي القضاء ومال بنظره الى التاجر قال: «لقد رددنا دعواك لانك عجزت عن ان تأتي ببيِّنة تَدعَم بها صحتها. كان الاجدر بك ان تفكّر مليًّا قبل ان تجترئ على رجل من منزلة الشيخ ابي مراد. يحِقّ للشيخ ان يقيم عليك الدعوى لانك جرَّحْت سُمعته».

فاجاب الشيخ على الفور: «معاذ الله، يا سيدي القاضي، ان أرهق هذا الرجل بعد ما لاقاه من الذُّلّ والانكسار».

قال القاضي: «بوركت يا شيخ. ما شككنا قطّ في سموّ أخلاقك ونُبل مشاعرك. نكتفي إذن بأن نُحرِّم على التاجر المكوث بين ظَهرانينا لانه كدّر صفو عيشنا.

انصرفوا». خرج التاجر كسير الخاطر وخرج الشيخ مزهوًّا. وقبل ان يبلُغ هذا الأخير الباب دوّى صوت كانه الرعد ارتجّت له أركان القاعة: «يا جمّال !» وبحركة عفويّة أدار الشيخ ابو مراد رأسه نحو مصدر الصوت. قال القاضي للحرّاس: «هاتوه». فأمسكوا به واقتادوه اليه. فصوّب الوالي اليه نظره والشرر يتطاير من عينيه. فخفض الجمّال رأسه وامتُقِع لونُه وانهارَتْ أعصابه واخذته الرعدة: لقد خسر المعركة. قال القاضي: «أيّها الرجل اللئيم الذي لا يحفَظ العهد ولا يرعى الأمانات، واللّه لأُمثّلنّ بك ولأفعلنّ ولأجعلنّك عِبرة لمن يعتبر. خذوه الى السجن وكبِّلوه بالحديد وضيِّقوا عليه». فخرّ الجمال على قدمي التاجر يسترحمه وقد فارقه عنفوانه. فأنهضه التاجر وعانقه. فران على القاعة سكوت رهيب. واستأذن ابو زياد القاضي بالكلام فأذِن له. قال: «لي رغبة أُبديها يا مولاي.

– وما هي؟

– اسألك ان تهبني هذا الرجل فهو صديقي وأخي. لقد برّأت ذِمّته مما لي عليه. واذا كان شيطان المال قد

وسوس له وأغراه فأبعده عني الى حين فحرامٌ علي ان أحاسبه على غلطته.

– اني أُكبر فيك، يا صاحبي، هذه المُروءة. منذ ان اجتمعت بك للمرة الأولى واستمعت الى حديثك كان لكلامك الوقع الحسن في نفسي ولم يُخطئ حَدْسي (ظني). وقد أجّلت الحكم ثلاثة ايام لأقلِّب الرأي في القضية اذ يستحيل عليّ ان ألفظ حكمًا لا يستند الى دليل. فلجأت الى هذه الحيلة وكان ما كان. أجبتك الى سُؤْلك وعفوت عن الجمّال إكرامًا لك».

شكر التاجر القاضي وودّعه وانصرف بصحبة الجمال. وفي اليوم التالي غادرا المدينة ورجعا الى مسقط رأسهما وعادت الحياة الى مجاريها بينهما.

أسئلة

١) اختصر القصة بعشرين سطرًا او أزيد.

٢) ما عَمَلُ الجمّال؟

٣) كيف كان ابو زياد يمارس مهنة التجارة؟

٤) لماذا كانت الاسفار تستهوي التاجر؟

٥) لماذا رفض ابو زياد الصفقة التي عرضها عليه احد اصحابه؟

٦) لماذا توقف التاجر في القاهرة؟

٧) ماذا عمل الجمّال بعد الرحلة الأخيرة؟

٨) ما رأيك في تصرّف الجمال؟ اشرحْ.

٩) ما هي الاعذار التي تذرّع بها الجمال ليسكت صوت ضميره؟

١٠) هل توافق على ما صنعه ابو زياد في آخر القصة ام كان الافضل ان يقتصّ من الجمّال؟ إشرح.

١١) هل دلّ الوالي على حكمة؟ بيِّنْ ذلك.

١٢) انسخ بعض التعابير التي اعجبتك.


منشورات مكتبة سمير